الفصل الثاني

الثقافة.. ما هي..؟

obeikandl.com

obeikandl.com

من المسلم به أن جميع البشر متساوون، حيث خلقهم الله - سبحانه وتعالى - من أب وأم معروفين لنا جميعا، هما آدم وحواء، وبنص القرآن الكريم ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾. فالخلق إذن من معين واحد، ولكن البشر انتشروا على سطح الكرة الأرضية، بسهولها ووديانها، وجبالها، بغاباتها وصحاريها، بأنهارها وبحارها، وبذلك أصبحوا «شعوبا وقبائل» تفصل بينها فواصل طبيعية في البداية من صنع الطبيعة، ثم فصلت بينها فواصل سياسية بعد ذلك، من صنع البشر، حين ابتدعت الحدود السياسية، بعد الحدود الجغرافية.

وخلف هذه الحدود عاش كل مجتمع مع نفسه، يتفاعل أفراده وجماعاته مع بعضهم، ويتعاونون في السراء والضراء، يصارعون عوامل الطبيعة إن كانت غير مواتية، ويحاولون إخضاعها لقضاء مصالحهم، أو هم يستفيدون من تلك العوامل إن كانت مواتية، فيستفيدون منها لخيرهم ولخير أبنائهم.

وهم كذلك تعاملوا مع بعضهم، في علاقات ودٍّ وتراحم وتجارة، كما أنهم في بعض الأحيان - اضطروا إلى التعامل مع بعضهم في علاقات سلبية، فيها حرب وتنافر وتطاحن، وهم في كل ذلك.. في حرب.. وفي سلم، في تعاون.. وفي تطاحن مروا في خبرات اكتسبوها على مرّ الأيام والسنين، فتشكلت لكل جماعة منهم خصائص ميزتهم من غيرهم، ميزتهم بمعنى حددت شخصيتهم، وليس بمعنى فضلتهم على غيرهم، حيث أن الثقافات تتمايز ولا تتفاضل.

هذه الخصائص التي تميز شعبا عن شعب هي التي نسميها «الثقافة»، والثقافة هنا نقصدها بمعناها العام الشامل والواسع الذي يشتمل على كل شيء في حياة الجماعة، ونقصد من ذلك الجوانب المادية والمعنوية في حياة ذلك الشعب أو تلك الجماعة، فما اكتسبه ذلك الشعب أو تلك الجماعة من قيم، وما

توصل إليه من عادات، وما استمر عليه من معايير، وما ارتضاه لنفسه من تقاليد تشكل الجانب المعنوي من الثقافة، كما أن كل ما استطاع أن يتوصل إليه من اختراعات ومبتكرات، ابتداءً من التوصل إلى «إشعال النار» والاستفادة منها، و«التوصل للعجلة» والجري بها، وانتهاء «بمركبات الفضاء»، و«الأقمار الصناعية» وتوظيفها لصالحه، ومروراً بما بين هذين الطرفين من ابتكارات في الصناعة وتوظيفها في الزراعة والتجارة والطب والتعليم والاتصالات وغيرها.. كل ذلك يمثل الجانب المادي من تلك الثقافة التي نتحدث عنها.

ومن ثم فنحن أمام تاريخ الجنس البشري كله، في صراعه، أي صراع ذلك الجنس، مع الطبيعة من حوله، أو في صراع جماعاته مع بعضها، في خبرات هائلة - بلا عدد - تراكمت على مر العصور، لدى كل شعب، وكوَّن حوْلها وعنها أفكارا ومعتقدات تعلمها الكبار، وعلموها لمن خلفهم من أبنائهم، وأبناء أبنائهم، بحيث صارت هذه كلها جزءا من تكوين هذه الشعوب والجماعات، وأصبحت علامات مميزة لهم، ودلالات واضحة عليهم، وكأنها مثل السمات الجنسية أو البشرية المميزة لهم، كما يقول علماء الأجناس أو علماء الجغرافيا البشرية.

ورغم ذلك التفسير أو الفهم لمعنى الثقافة، وكيفية تكونها، إلا أنه ينبغي الاعتراف بأن مصطلح «الثقافة Culture» كان - ولا يزال - من أكثر المصطلحات التي اختلف عليها العلماء اختلافا بينا، وأينما التقوا كانت هناك تعريفات للثقافة، ربما.. بعددهم دون أدنى مبالغة!!

أصل المصطلح ومعناه:

يقول عويس إن العرب استعملوا كلمة (ثقافة) بمعنى التقويم والتهذيب من ثقفت الرمح إذا هذبته وقومته، واستعملوها أيضا بمعنى الحذق والفطنة،

ووردت عندهم بمعنى الوجود، وبمعنى التمكن والغلبة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء**﴾ وقوله: ﴿**فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم**﴾[1].

أما إذا تركنا العرب، وانتقلنا إلى شعوب أوروبا، فنجد أن كلمة ثقافة كانت، ولا زالت، ذات صلة وثيقة بالزراعة، فالأولى Culture، والثانية Agriculture ومعناها زراعة الأرض بعد تهذيبها وإعدادها، كما استعملت في اللاتينية بمعنى قريب من المعنى العربي فقيل إنها (Culture Aniuvi)بمعنى تهذيب الروح، وبمعنى التهذيب الرباني (Dei Culture)، وقد استعمل اللفظ بمعنى العبادة (Dei Culture)، أي عبادة الله على اعتبار أن عبادة الله صقل للنفس وتهذيب لها.

ومنذ العهد الروماني ارتبط معنى الثقافة بالعلوم الإنسانية، أي العلوم التي تنفصل فيها كل أمة عن الأمم الأخرى، كعلوم الدين واللغة والآداب التي يدخل فيها الفلسفة، والفنون، أي العلوم غير العلمية وغير الطبيعية.

ثم في عصر النهضة الأوروبية أصبح اللفظ على الآداب، والفنون، كما يقول حسين مؤنس في كتابه (الحضارة)، وكما نقل عنه عويس، والذي يميل إلى قصر مصطلح الثقافة على العلوم الإنسانية، باعتبارها العلوم الأكثر تأثيرا في الرقي الإنساني الحضاري، من الجانب الروحي، وباعتبارها - كذلك - العلوم التي تنفصل فيها أمة عن أمة، وتشكل معالم الشخصية الذاتية للأمة، ولا تتسع فيها المساحة، بحيث تكون متشابهة، أو واحدة بين كل الأمم، كما هو الشأن في العلوم التطبيقية.

وقريب من المعنى الذي قلناه في بداية الحديث عن الثقافة من أنها نتاج خبرة

---

(١) عبد الحليم عويس: ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، النادي الأدبي بالرياض، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ١٥.

تاريخيـة طويلة للمجتمعات، يقـول زكي اسماعيل إن العالمين الأنثروبـولوجيين الأمريكيين «ألفريد كروبير A. Kroeber، كلايد كلكهوهن C. Kluckhohn» قد استعرضا ما يزيد على مائة وستين تعريفا للثقافة، وبعد أن استعرضا هذا الحشد الهائل من التعريفـات لعديـد من الأنثروبـولوجيين أشـارا إلى أنهما يستطيعـان، بدون أي تحيـز لأي من هذه التعريفـات، أن ينتهيا إلى أن الثقافـة ذات مضمون تاريخي Historical، أي من حيث كـونها تـراكما لعـديـد من الأنماط والمركبـات الثقافية التي تراكمت عبر تاريخ ثقافي طويل، ومن ثم فهي تشتمل على الأنماط والأفكـار والقيم، ولها صفـة الاختيـار والانتقـاء، وهي في الـوقت نفسـه مكتسبة . . أي تتعلم، كما أنها تجريد للسلوك الإنساني Abstract، وإن لـم تكن هي السلوك نفسه، إلا أنها نتيجة لهذا السلوك»(١).

ويـؤكـد عبـود على الأصل الـذي يـربط بين الثقـافـة والـزراعـة، في اللغتين الإنجليـزية والفـرنسيـة، ولكنـه يقول إنها استخـدمت للتعبير عن التربيـة لغير الإنسـان، فقط للـزرع والنحل(؟؟) ثم إنها اتسعت بعـد ذلك لتشمل «تـربيـة الإنسان أيضا إلى جانب شمـولها غير الإنسان، من زرع وحيوان، فصارت تعني أخـلاق الناس وعـاداتهم، وأي شيء يحتـاج إلى رعايـة خـاصة . . ثم يبـدو أن الكلمة زادت اتساعا بتوجهها إلى أخـلاق الناس وعاداتهم، فصارت تعني ـ فيما تعنيه ـ تهذيب وتثقيف العقل.

ثم يبدو أن الكلمـة ـ أخيرا ـ بـدأت تنفصل عن (أصلها) الأول (الـزراعة)، لتتصل بهذا الفرع الأخير، فصارت (ثقف) تعني صـار حاذقا فطنا، ثقف العلم والصنـاعة، حـذقهما، وصـارت الثقـافة تعني «العلـوم والفنـون، التي يطلب

(١) زكي محمد إسماعيل : الأنثربولوجيا والفكر الإسلامي، عكاظ للنشر والتوزيع، جـدة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ص ١٢٢ - ١٢٣.

الحذق فيها»[1].

ويصل الكاتب أخيرا إلى المعنى الشامل للثقافة، وهو المعنى الاصطلاحي لها، والذي اتفق عليه التربويون والأنثروبولوجيون، والذي يستخدم الآن في العلوم الاجتماعية وهو «طريقة الحياة الكلية للمجتمع، وقد تتضمن أسلوب تناول الطعام، أو ارتداء الملابس، أو استخدام اللغة، أو تبادل الحب أو الزواج، أو دفن الموتى، أو لعب كرة القدم. وقد تشمل أيضا قراءة الأدب، أو سماع الموسيقى، أو مشاهدة أعمال الرسامين والمثالين، أو الأنواع الأخرى من النشاط». وذلك كما نقل عبود من كتابات «أوتاواي»[2] عالم الاجتماع التربوي المشهور.

والثقافة على النقيض من العلم، لا يمكن أن تفهم على أنها تعني مستوى عاليًا للامتياز العقلي والفني، في شخص أو مجموعة، إذ هي ملك للجميع، فلا يوجد إنسان مثقف، وآخر غير مثقف، على النحو الذي نستخدمه في حياتنا العادية خطأ، إذ أن لكل إنسان ثقافته، صغيرا كان هذا الإنسان أو كبيرا، غنيا أو فقيرا، متعلما أو جاهلاً، رجلا أو امرأة، ولكل مجتمع من المجتمعات أيضا ثقافته، مهما كانت الظروف المحيطة بهذا المجتمع.

فالثقافة بالنسبة للفرد مرادف (للشخصية)، والثقافة بالنسبة للمجتمع مرادف (للشخصية القومية) التي يتميز بها هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات. إنها ذلك النسيج الكلي المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير والعمل وأنماط السلوك، أو هي جميع طرائق الحياة التي طورها الناس في المجتمع، وكذلك المنتجات

---

(١) عبد الغني عبود: الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٨ - ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠.

المادية»

أما الرميحي فيحدثنا عن الحيرة التي تنتاب الكتاب وهم يتعاملون مع تعريفات للثقافة وصلت إلى أن أكثر من مائة وخمسين تعريفاً «لقد تعددت المفاهيم واتسعت لمعنى الثقافة حتى أصبحت تعني معنى آخر هو المجتمع بكل ما فيه وما يعنيه. وهناك اليوم ما يزيد على مائة وخمسين تعريفا للثقافة، بعضها جامع شامل وبعضها محدود» (١).

ويقول الكاتب السابق إن «المعنى الواسع للثقافة هو ما ينتجه مجتمع ما من إنتاج مادي ومعنوي، أي أن كل منتجات الإنسان في حياته اليومية العملية والترفيهية تمثل الثقافة لذلك المجتمع، أو لتلك المجموعة الإنسانية، والمعنى الآخر هو المعنى الضيق للثقافة، ويعني ما ينتجه الإنسان في مجتمعه من منتج فكري، وهذا هو المعنى الشائع للثقافة».

ويستدرك الرميحي ليبين العلاقة بين الثقافة بمعناها الواسع الشامل، وبين الثقافة بمعناها الضيق؛ إذ «يمكن أن يتحول منتج فكري ما إلى واقع مادي، كأن تتكون لدى فرد أو بعض أفراد مجموعة من الأفكار السياسية أو القانونية أو العلمية، وتتحول هذه الأفكار في وقت لاحق إلى شيء مادي، فهناك إذا حتى في المفهوم الضيق للثقافة إمكانية التبادل بين المعنيين، أو العلاقة الجدلية بين المفهومين» (٢).

وما دام أننا لا زلنا في مجال محاولة بيان أصل مصطلح الثقافة فلعله يكون من المناسب أن نعرض لجهد دولي تم في هذا المجال، فلقد اجتمع ممثلو «اليونسكو»

---

(١) محمد الرميحي: واقع الثقافة ومستقبلها في أقطار الخليج العربي، المستقبل العربي، العدد ٤٩، مارس ١٩٨٣م، ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق.

في المكسيك خلال معظم أيام شهر يوليو والأيام الأولى من شهر أغسطس ١٩٨٢م، في محاولة لتحديد معنى ذلك المصطلح، فيما عرف باسم «إعلان مكسيكو»، وبعد مناقشات طويلة ومركزة، معمقة وموسعة خرج علينا المؤتمرون بالتعريف التالي :

« **إن الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جميع السمات الروحية . . والمادية . . والفكرية . . والعاطفية، التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات**» . (الوثائق الرئيسة لإعلان مكسيكو بشأن الثقافة، والذي كان نتيجة لمؤتمر اليونيسكو للثقافة، مكسيكو ٦ يوليو - ٦ أغسطس ١٩٨٢م .

ويفسر الإعلان - بعد ذلك - الثقافة تفسيرا إجرائيا، فيقول : «**إن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائنا يتميز بالإنسانية المتمثلة في العقلانية والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي . وعن طريقها (أي طريق الثقافة) نهتدي إلى القيم ونمارس الاختيار، وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والتعرف على ذاته، كمشروع غير مكتمل، وإعادة النظر في إنجازاته، والبحث دون توان عن مدلولات جديدة، وإبداع وأعمال يتفوق فيها على نفسه** [1] .

ويخلص الرميحي في النهاية إلى أن «الثقافة تعني جوهر المجتمع، تعني كل ما ينتجه المجتمع من إنتاج مادي ومعنوي، كما تعني تأثر ذلك المجتمع أو تلك المجموعة الإنسانية بالنتاج المادي والمعنوي لغيرها وتأثيرها فيه، ومدى النقل

(١) المرجع السابق، ص ص ٤٤ - ٤٥ .

الكامل والاستيعاب والتمثيل، فالثقافة السائدة في مجتمع ما أو جماعة ما، تعني السمات الأساسية . . الروحية والمادية والفكرية التي تميزهما، هذه السمات الأساسية هي التي تميز ثقافة عن ثقافة أخرى، هي التي تعطي المنتج المادي والفكري خصوصيته وتفرده» (١).

وقد بنى الكاتب السابق رأيه على الإعلان العالمي (إعلان مكسيكو) للثقافة بمعناها الواسع الذي يضم بين عناصره : الاهتمام بالعدالة العالمية، والسلم العالمي، وحقوق الشعوب، والأفراد في الديمقراطية والتنمية، بل لقد أفرد إعلان مكسيكو صفحات كثيرة للحديث عن الثقافة والتنمية، والثقافة والديمقراطية، والعلاقة الحميمة بين الثقافة والتربية وعلوم الاتصال.

ويضيف العمر عدة أبعاد أخرى للمعنى الشامل للثقافة، فهي عنده «نتاج أنماط التربية ونظم التعليم، ومبتكرات العلم، وجملة العادات والتقاليد، والأديان والمذاهب والعقائد، وذلك في إطار انطباعات وجدانية وقيم خلقية (٢).

ويستعير العمر من عبد المنعم الصاوي تعريفا آخر عن الثقافة من كتابه (عن الثقافة) فيقول : إنها «مجموعة مكتسبة من الخصائص والصفات، تحدد للإنسان نوعا متميزا من السلوك يقوم على مجموعة من القيم والمثل والمفهومات، يؤثرها ويتمسك بها ويحرص عليها، وهذه الخصائص والصفات تتوافر لديه على مر العصور والأجيال نتيجة تطور عضوي وعقلي ووجداني ونفسي

---

(١) المرجع السابق.

(٢) عبد الله العمر : التواصل الثقافي بين دول مجلس التعاون : الواقع والمطلوب، مجلة التعاون، العدد الثالث، شوال ١٤٠٦هـ - يوليو ١٩٨٦م، ص ٤٢.

واجتماعي»[1].

والثقافة عند شاكر مصطفى «تنتظم السمات التراثية للأمة، من مادية وروحية وفكرية وفنية، كما تشمل قيمتها الأخلاقية والمجتمعية، ومواقفها من الحياة، وطرائق تفكيرها، وإبداعها الجمالي، ونتاجها المعرفي، وسبلها في السلوك. وتضم أخيرا تطلعاتها ووسائلها في الوصول إلى حياة أكثر إنسانية، وأنبل قيما، وأوسع شمولا، وأعمق معرفة وفكرا.

والثقافة - بهذا المعنى - ليست جهدا إنسانيا مجانيا، ولكنها ذات وظيفة إنسانية - قومية معا، فهي بجانب الدين واللغة قوام وحدة الأمة؛ لأنها تنسج تكوينها الداخلي، وتجمع أفرادها على المصير التضامني الواحد، وهي وسيلة تأكيد التراث والتمايز عن الآخرين، بوصفها مستودع القيم.

كما أنها سبيل الأمان والاطمئنان لأفراد الأمة الواحدة، بوصفها أكثر النشاطات اتصالا بكرامة الإنسان، وتعبيرا عنه وعن هويته، بالإضافة إلى أنها حصن الدفاع؛ لأن وظيفتها أساسية في مواجهة التحديات القومية من تجزئة وتخلف وتبعية وصهيونية، ولأنها مناط الهوية القومية المقاتلة، وآخر ما يمكن انتزاعه من النفوس، هذا إضافة إلى أنها أخيرا. وسيلة اللقاء مع الآخرين على المثل العليا الإنسانية المشتركة[2].

ويتحرز لنا الرميحي في بعد مهم حين يتحدث عن التنوع والتفرد في الثقافة، حتى داخل المجتمع الواحد «ولا شك أن كل جماعة لا يمكن أن تتطابق مع غيرها في سماتها الأساسية الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، ولا شك أن هناك تنوعًا وتفردا فيها لدى جماعة دون جماعة أخرى في المجتمع نفسه

---

(١) عبد المنعم الصاوي: عن الثقافة، دار القلم، بدون مكان نشر، ١٩٦٦م، ص ٣٦.

(٢) شاكر مصطفى: التخطيط الثقافي في دول مجلس التعاون، مجلة التعاون، العدد الرابع، المحرم ١٤٠٧هـ. أكتوبر ١٩٨٦م، ص ص ٩ - ١٠.

أو الدولة السياسية (؟؟)، ولكن المراد هنا هو السمات الأساسية والجوهرية والمشتركة في مجتمع ما. وبالتحليل نفسه فإننا نجد سمات أساسية وجوهرية ومشتركة لدى جماعة من الناس قد تفرق بينهم (حدود) سياسية. فالسمات الأساسية الجوهرية والمشتركة الروحية والفكرية والمادية ليست بالضرورة تابعة أو مقيدة ومحصورة في إطار سياسي معين، أو ما يسمى بالدولة الحديثة، فقد نجد في الدولة الواحدة مجموعات ذات سمات ثقافية متعددة، وقد يشترك بعض هذه المجموعات مع مجموعات أخرى - خارج الإطار السياسي - بسمات ثقافية مشتركة

وبالمنطق السابق نفسه الذي يقول إن الثقافة غير مقيدة بالحدود السياسية، بمعنى أنها قد تختلف بين جماعات متعددة داخل إطار سياسي واحد، وقد تتطابق بين جماعات أخرى عبر الحدود السياسية - يصل الرميحي إلى مفهوم مؤداه أن محاولات توحيد «النموذج الثقافي» لاعتبارات سياسية هو في الواقع «قتل وتدمير للثقافة»، وليس تطورا لها، على أن هناك اليوم «ثقافة وطنية، وثقافة إقليمية (داخل الوطن الواحد) وتوجد ثقافة (غير وطنية) مشتركة خارج الإطار السياسي.

وتوجد أيضاً ثقافة ذات قنوات عالمية، فعالم اليوم شديد التعقيد، وسريع الاتصال، فهو لا شك تخطى الكثير من الجدران التي كانت إلى وقت قريب تحيط بالثقافات الوطنية[1].

أما سرحان فيقول إن الثقافة لا تعني تلك الصفات أو الميول التي تميز الفرد

---

(١) محمد الرميحي: الخليج ليس نفطا. دراسة في إشكالية التنمية والوحدة، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٣م، ص ١٩١.

المتعلم من غيره من أفراد المجتمع، كما لا تعني السلوك الحميد، والذوق الرفيع لشخص يحسن التصرف مع الآخرين، أو ذلك النتاج التعليمي أو التخصصي في ميدان من ميادين العلم والمعرفة الذي بلغ في فرد ما أو مجتمع ما شأنا عظيما. فقد اعتاد الناس أن يصفوا فردا بثقافته العالية، أو مجتمعا بثقافته الأدبية أو الفنية، كالثقافة الإغريقية أو المصرية القديمة مثلا

أما الثقافة عنده فهي «كل عضوي يتمثل في طريقة الحياة في المجتمع، ذلك الكل الذي تتشابك عناصره وتتداخل، ويؤثر بعضها في بعض، ويتغير أو يتطور بتغير الزمان والمكان. وبعد أن يمر على عدد من تعريفات الثقافة يصل الكاتب إلى مفهوم شامل للثقافة يقول عنه إنه هو «طريقة الحياة في المجتمع، بجوانبها المادية كالآداب والإنشاءات والأزياء وغيرها، والمعنوية كاللغة والأدب والفن والدين وغيره». وهي من صنع الإنسان في سعيه للتكيف مع البيئة الطبيعية والاجتماعية لإشباع حاجاته العضوية والعقلية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية، كما أنها تتمثل في قيم الحياة واتجاهاتها ومعاييرها الحاكمة، وفي طرق التفكير وأنماط الفكر، وفي المعتقدات والتوقعات والعلاقات التي تنظم تعامل الناس في حياتهم، وفي أنماط السلوك ومصطلحاته بين الناس في المجتمع ونظمه وأجهزته ومؤسساته. والثقافة تتناقلها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال، والتفاعل الاجتماعي، لا عن طريق الوراثة البيولوجية، وهي ما يتعلمه الخلف من السلف، عن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها، وعن طريق الإشارة والرموز [1].

ثم إن ثقافة الإنسان من صنعه، فهو الذي يسيطر على البيئة الطبيعية،

---

(١) منير المرسي سرحان في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م، ص١٢٩.

ويبحث في وسائل استغلالها والتكيف معها لتحقيق مطالبه. وذلك يعني أن الثقافة أمر متصل بالإنسان، وليست خارجة عن قوانين المادة والطاقة، وإنما هي نتاج النشاط الإنساني، وانطلاقا من علاقة الإنسان بالطبيعة وبالمحيط الذي يعيش فيه، تنبثق موضوعات النشاط الاقتصادي وتدور حول المنفعة والاستفادة، كما تتحدد وسائل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والتوزيع، وينبثق من هذا النشاط الاقتصادي كثير من العلاقات التي تنظمه، والقيم والمعايير التي تحكمه، والأجهزة والمؤسسات التي تحققه، ويتم ذلك كله في إطار الثقافة(١).

ويفرق سرحان بين المجتمع البشري وغيره من المجتمعات الحيوانية الأخرى على أساس الثقافة «فهي التي تميز المجتمع الإنساني بلغته وذكائه وإنتاجه عن المجتمعات الحيوانية» فلبعض الحيوانات كالنحل والنمل والطيور وغيرها من الكائنات مجتمعات، ولكن ليس لها ثقافة، ذلك أنها تعيش حياتها على أساس سلوكها الفطري، وتكوينها الجسماني المعد من قبل، ومن ثم فهي لا تحتاج عند ولادتها أن تتعلم من الكبار إلا قليلا، لأنها تكون قد اكتملت عندها إمكانات تكيفها مع البيئة التي تعيش فيها، لذلك تقصر طفولة الحيوان عن الإنسان(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٣١ - ١٣٢.

أما قمبر وزميلاه فيقولون: «تستعمل كلمة ثقافة بمعان مختلفة، فهي تؤخذ عادة على أنها تعني مستوى عاليا من الامتياز العقلي والفني لشخص أو مجموعة، وقد تفهم أيضا بمعنى المعارف والمعلومات الواسعة التي لدى المتعلمين تعليماً عالياً، فيعرف البعض الشخص المثقف بأنه ذلك الشخص الذي يحظى بنصيب وافر من العلم والمعرفة، فهو يقرأ الكتب والصحف والمجلات، ويعرف سير العلماء، ويتوافر لديه قسط معقول من المعرفة والعلوم والفنون والآداب» (١).

ثم يستدركون قائلين إن تعريف الثقافة بهذا الشكل، أي قصرها على النواحي الفكرية (المعرفية) يعد تعريفاً ناقصاً؛ لأنه «يهمل المكونات الأخرى للخبرة مثل المهارات والعادات والاهتمامات والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير، وما يبني على كل ذلك من أنماط السلوك والتجديدات والاختراعات والتطبيقات التي توصل إليها الإنسان خلال العصور السابقة، وتجمعت آثارها لديه في صورة ذخيرة كبرى تتوارثها الأجيال، وتنتفع بها، وتضيف إليها» (٢).

ويبين لنا الكتّاب السابقون اتجاهين في فهم الثقافة ينقلونهما عن «فاروق إسماعيل»، ومن خلال هذين الاتجاهين يمكن عرض معالجة الباحثين لمفهوم الثقافة وحصر الخلافات بينهم، كما يقولون :

أ - الاتجاه الأول :

وهو الاتجاه الواقعي، ومن أقطابه «تايلور» و«بواس» و«ديكسون»، وهم ينظرون إلى الثقافة كصفة تميز السلوك الإنساني، وهم عادة ما يعرفون المفهوم

---

(١) محمود قمبر وآخران : دراسات في أصول التربية، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٣٢ - ٣٣.

بلغة «اكتساب» العادات والتقاليد . . . إلخ . فهم يرون أن الثقافة لها وجود خاص متمايز ومستقل عن الأفراد الحاملين لها . الثقافة بالنسبة لهم «ما يفعله المجتمع ويفكر فيه» . . . وهي العناصر الموروثة خلال حياة الناس ، سواء كانت هذه الموروثات مادية أو روحية . فالثقافة هنا «فوق عضوية» ، أي توجد وتعمل وفق منطقها الخاص ، وهي مستقلة عن الإنسان .

ب – الاتجاه الثاني :

وهو الاتجاه المثالي ، ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه «أوسجود» ، «رالف لنتون» ، «كروبر» ، وهؤلاء ينظرون إلى الثقافة على اعتبار أنها مجموعة من الأفكار في عقول الأفراد ، أو أنها «مفهومات مألوفة ومدركة» . إن الثقافة هنا ليست شيئا متمايز الوجود بحيث يمكن لمسه . إنما الثقافة عند أصحاب هذا الاتجاه مجرد مدركات في عقول الذين يشاركون فيها ، إنها بالأحرى جزء من الكائن العضوي يتخذ شكل أفكار أو آراء أو معلومات يستخدمها في تحديد السلوك الذي يستهدفه ، وهذا الكلام كما سبق القول نقله قمبر وزملاؤه عن فاروق إسماعيل[1] .

ثم نقرأ عن المفهوم الشامل للثقافة ، حيث يقول المؤلفون السابقون : «إن النظرة الشاملة إلى الثقافة توجب علينا أن نأخذ في الاعتبار كلا من الاتجاهين المثالي والواقعي ، فالثقافة عضوية وفوق عضوية معاً . فهي عضوية بمعنى أنها إدراك الناس أنفسهم للأشياء من حولهم ، وخبرتهم في التعامل معها . فالثقافة

---

(١) فاروق مصطفى إسماعيل : الأنثروبولوجيا ، الدوحة ، قطري بن الفجاءة ، ١٩٨٦م ، ص ٩٣ .

في ذهن حاملها مدرك عقلي معرفي، بمثابة طريقة إجرائية Recipe تمكننا من إنتاج السلوك أو الأشياء المادية، وهذه الطريقة الإجرائية تشتمل على توجيهات و إرشادات تحدد الأداء والسلوك وتجعل للأشياء معنى.

لكن الثقافة في الوقت نفسه فوق عضوية، فهي حقيقة مستقلة عن حامليها، وليست مجرد مفهوم في عقل حاملها، إنها كينونة لها وجودها المتمايز، وتعمل وفقا لقوانينها، ولا يوجد أي تناقض في الجمع بين الاتجاهين؛ فلأن الثقافة مفهوم.. أو مركب عقلي، في عقل حامله، فهي ذات وجود مستقل، فالمفهوم المعرفي هنا إنما يشير إلى طريقة واقعية في تنظيم الظواهر والأشياء القائمة بالفعل، ولأن هناك أنسقة معرفية توجه السلوك ونتائج السلوك، فهناك أنسقة عمل (سلوك ونتائج السلوك) يؤثر بدوره في صنع المفاهيم والمدركات، والنظرة الشاملة للثقافة تقتضي أيضا إقرار العلاقة المتبادلة بين الفكر والواقع، بين الإنسان وثقافته»(١).

ونصل في نهاية رحلتنا في البحث في تحديد أصل ومعنى الثقافة، نصل إلى الجهد الكبير الذي بذلته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حين أقدمت على وضع «الخطة الشاملة للثقافة العربية»، والتي قدمت فيها بحوث كثيرة، نوقشت في اجتماعات موسعة، وخرجت في عدد من المجلدات الضخمة، بعد أن طبعت في الكويت عام ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

يقول أصحاب هذه الخطة عن الثقافة ما يلي :

---

(١) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ٣٦.

إن البحث في الثقافة ليس بالأمر السهل، فهو نشاط إنساني بالغ التعقيد والعمق والتشعب. والمصطلح الذي يعبر عنها قد يبرر أن التعريف به في ميسور كل امرئ.. من كل مستوى، لكن هذا التعريف يظل نسبيا قاصرا عن الإحاطة، محتملا للضيق والسعة، عرضة إلى اللبس أيضا. ولعل كثرة تداول الكلمة وتعدد ميادينها وسّع مدلولها، وزاد إبهامها، وحمّلها ألواناً من الأبعاد والمعاني والحدود(١).

وتتحدث تلك الخطة عن أصل كلمة ثقافة فتقول: «إن الثقافة بالمعنى العربي للكلمة لا تعني أكثر من سرعة التعليم والحذق والفطنة، وثبات المعرفة بما يحتاج المرء إليه، لكنها منذ مطلع هذا القرن حملت معنى اصطلاحيًّا أريد به أن يترجم المعنى الذي حملته منذ أوائل القرن الثامن عشر كلمة (Culture) اللاتينية، بعد أن لاقت هذه الكلمة «المصطلح»، رواجًا في عصر التنوير الأوروبي، وخصوصًا في ألمانيا. على أن شيوعها في الفكر العربي أدى إلى تشعب معانيها، وإلى إبهام هذه المعاني، فقد أضاعت الثقافة من وضوحها بقدر ما كسبت من الحظوة والشيوع.

والباحثون في محاولاتهم ـ منذ قرن من الزمان ـ كي يعطوا الكلمة التعريف الواحد الشامل زادوا في تعقيدها، وفي اختلاف هذه التعاريف التي فاقت المائتين عدداً. فثمة من يميل إلى دراسة الثقافة في حد ذاتها، والتنقيب عن وظائفها الاجتماعية المطلقة، مهملا الاستعانة بتاريخها وعلاقاتها مع الأفراد، وهناك من يرجح كفة التاريخ، ولا يفهم الثقافة إلا من خلال منظورها التاريخي البحت، وبين هذين المفهومين تمتد تفسيرات شتى مغايرة(٢).

وتقول الخطة بأنه «لعل من أبواب الإبهام في مفهوم الثقافة اختلاطها بمفهوم الحضارة، ففي الغرب ظهرت الكلمتان في عصر واحد، هو القرن الثامن عشر،

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المجلد الأول، الكويت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص ٤١.

(٢) المرجع السابق.

وتباينت معانيها من موقع فكري إلى آخر. فالفرق طفيف بينهما في الفكر الفرنسي، ولكنه كان في الفكر الألماني واسعاً حتى أضحت الثقافة تختص بالمعنى الروحي والفكري والفني والعلمي، بينما تدل الحضارة على المعنى المادي أيضا والتقني (أي بما نستعمل)، وهكذا جرى الاصطلاح في القرن الحالي، وعلى ضوء الواقع الأوروبي، باعتبار الثقافة جزءًا من الحضارة، واعتبار الحضارة صيغة أشمل تحتضن جملة من الثقافات ترتبط بعضها ببعض بصلات واتصالات معينة. ومن هذا المنطلق يتسع مفهوم الثقافة وتختلف ممارستها باختلاف المجتمعات وتركيبها بين الطبقات والفئات. وثمة إبهام آخر يأتي من تداخل مفهوم الثقافة مع مفهوم التقدم. وأمر التفريق ها هنا أهون؛ لأن التقدم مفهوم تقويمي، مرتبط بالاتجاهات الفلسفية التي بدأت منذ عصر النهضة الأوروبية وتجسَّد في مظاهر الثورات الصناعية، كما أنه دوما مفهوم نسبي يقوم على تقدير مدى الحركة الإنسانية (١).

وأخيراً يصل الذين فلسفوا خطة الثقافة العربية إلى كلام واضح بخصوص مفاهيم الثقافة، والتي يقولون إنهم يستطيعون اختصار تلك المفاهيم العديدة في النهاية - إلى مفهومين اثنين فقط، هما :

أ - الثقافة بالمعنى (الأنثروبولوجي) الذي يشتمل كل فعالية للإنسان تميزه من أفعال الطبيعة. فكل نشاط ذهني أو مادي يقوم به لرفض التقبل السلبي للطبيعة هو ثقافة، اعتبارًا من أبسط السلوك للإنسان البدائي حتى إنسان العصر الإليكتروني. فالثقافة بهذا الشكل الواسع هي الإنسان بوصفه فاعلا منفعلا. ويدخل فيها كل ما أنتج البشر في الحياة من إنتاج مادي أو غير مادي، سواء أكان تراكم خبرات، أم ممارسات فكرية، أم تصورات من عقائد روحية، أم صنع أداة الأوراق، أم تقليدا من التقاليد.

فالثقافة ضمن هذا المفهوم الواسع إلى جانب كونها سلوكًا بشريًّا وفكريًّا

---

(١) المرجع السابق.

جماعيًّا ونمط عيش مشترك، وإلى جانب كونها قيماً روحية، وعقائد وتقنيات، فهي أيضا وأساسًا علاقة الإنسان بمحيطه، وبموطنه الطبيعي، وبإبداعاته المادية والجمالية، وبذاكرته الجماعية، والهيكل الشامل أو البنية العريضة للوعي بهذه العلاقة بالذاتية الجماعية.

ب - أما المعنى الثاني فيرتبط بنوع الأساليب وأشكال القيم التي يبتكرها الإنسان ليُكسب إنسانيته معناها الخاص، وينظم بها حياته الخاصة والاجتماعية والفكرية والروحية والجمالية. وفي هذا السياق فالثقافة تشمل مجموع النشاط الفكري والفني بمعناها الواسع، وما يتصل بهما من المهارات، أو يعود عليهما من الوسائل، فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرى، متأثرة بها، معينة عليها، مستعينة بها (١).

وبهذا المعنى أيضا فالثقافة تنظم جميع السمات المميزة للأمة، من مادية وروحية وفكرية وفنية ووحدانية، وتشمل مجموعة المعارف والقيم والالتزامات الأخلاقية المستقرة فيها، وطرائق التفكير والإبداع الجمالي والفني والمعرفي والتقني، وسبل السلوك والتعرف والتعبير، وطرز الحياة، كما تشمل أخيراً تطلعات الإنسان للمثل العليا ومحاولاته إعادة النظر في منجزاته، والبحث الدائب عن مدلولات جديدة لحياته وقيمه ومستقبله، وإبداع كل ما يتفوق به على ذاته.

والثقافة أخيرا - ضمن هذا المعنى نفسه - تمنح الإنسان القدرة على أن يفكر في نفسه، وهي التي تجعل منا فعلا كائنات إنسانية، مفكرة، ملتزمة أخلاقيًّا ومعنويًّا، قادرة على التقويم. وبالثقافة يميز الإنسان بين القيم، ويمارس الاختيارات، ويعبر عن صميم ذاته، ويعي ويعرف أنه مشروع غير كامل، لكنه في السبيل إلى الكمال (٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق.

عنـاصر الثقافـة :

والآن . . وبعد أن انتهينا من محاولة استقصاء جـذور مصطلح الثقافة ومعرفة معانيه المختلفـة، لعلنا ننتقل لنتعرف عناصر الثقافة أو مكـوناتها، فهي تتكون من مجموعتين رئيستين : العنـاصر المادية، والعناصر غير الماديـة . ولعلنا نفصل فيهما بعض الشيء، آخذين في الاعتبار أن الفصل بينهما ليس أمراً سهلاً، لسبب واحد بسيط هو أن عناصر الثقافة كلها متكـاملة ومتفاعلة ومتشابكة مع بعضها في آن واحد، ولكن متطلبات البحث والدراسة هي التي تجعلنا نلجأ إلى الفصل بين عناصر الثقافة بقصد الفهم والإحاطة .

أولاً :

العناصر المادية : وهذه تشتمل على الآتي :

١ - الأشيـاء الماديـة، مثـل المسـاكن والشـوارع والأسـواق، وكـذا وسـائل المواصلات وغيرهـا، باعتبارها نتائج مادية للسلوك .

٢ - طرائق وأسـاليب التعامل مع هذه الأشيـاء المادية واستعمالها [١]. هكذا يقول قمبر ومـن معه، وإن كنا نتحفـظ هنا على العنصر الثاني؛ لأن الأسـاليب والطرائق قد لا يحسن إدراجها ضمن الأمور المادية، إنما هي من الأمور المعنوية، بمعنى أننا لو نظرنـا - مثلاً - إلى إشارات المرور التي تنتشر في معظم مدن العالم لوجدنـا أن هناك مجتمعـات تحترم تلك الإشارات وما تمثله من نظـام، حتى ولو كانوا في منتصف الليل، أو حتى عند الفجـر حين تخف حركة رجال المرور، بينما في مجتمعـات أخـرى لا يعير كثير من المواطنين هـذه الإشـارات أدنى اهتمام .

---

(١) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ٣٦ .

فالقضية هنا قضية سلوك، ومن ثم فهي من الأمور المعنوية، وليست من «الأشياء»، فهي جزء من التعامل مع الأشياء - إن صح التعبير - كما يقول المؤلفون السابقون، ولكنها لا ينبغي أن تندرج تحت العناصر المادية.

وفي هذا الجانب السابق يقول سرحان: «إن المخترعات والصناعات والبناء والكساء وغير ذلك من الإنتاج المادي الذي توصل إليه الإنسان لإشباع حاجاته، إنما يتحدد استعمالها والأفكار والاتجاهات والقيم التي تتمثل في حياة الناس، ومستواهم الفكري والاجتماعي والاقتصادي، لذلك لا ينبغي فصل الجوانب المادية في الثقافة عن الجوانب المعنوية؛ لأن كلا منهما تؤثر في الأخرى»(١).

«كذلك تتكامل الثقافة حين يكون هناك توازن بين كل من الإنتاجين المادي والمعنوي فيها، فلا يجوز أن يكون هناك تقدم ملحوظ في بناء المساكن ورصف الطرق مثلا، بينما يكون هناك تخلف ملحوظ في التعليم، وارتفاع في نسبة الأمية. وقد يكثر استخدام الآلات الحديثة في مجالات الحياة دون أن يصاحبه تغيير في العادات والتقاليد والمفاهيم التي تتصل بتقبل الجماعة لها، وتنظيم حياتها على أساسها، ويرتبط بهذه الحقيقة ظهور مشكلات التغير الثقافي والتوجيه الاجتماعي(٢).

والواقع أننا قد نختلف في هذه النقطة مع الكاتب، فحديثه عن تكامل الثقافة، أي التوازن بين الإنتاجين المادي والمعنوي مفهوم ومنطقي، أما عبارته التي يقول فيها: «لا يجوز أن يكون هناك تقدم ملحوظ في بناء المساكن ورصف

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ص ١٣٣ - ١٣٤.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤.

الطـرق مثـلا، بينما يكـون هنـاك تخلف ملحـوظ في التعليم، وارتفـاع في نسبـة الأمية»، وما تلا ذلك من عبارات حديثه السابق ففيها نظر !!

لقد فـاته أن التغير حين يحدث في المجتمع يكون أسرع في الجوانب الماديـة منه في الجوانب الأخـرى، ولعل هذا هـو الحال الذي كـان ـ وربما لا يـزال في بعض أجزاء منه ـ في الخليج بالتحديد، فلقد تبنت دول الخليج العربية خططاً طموحة للتنمية خلال العشرين سنة الأخيرة، نتيجـة للطفرة البترولية الهائلة التي أعقبت حرب رمضـــان/ أكتوبـر المجيدة في ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م، وتصحيـــح أسعار البترول. وكان من نتائج هذه الخطط أن ظهـرت نتائج العمران (المادية) بشكل سريع، جعل الخدمـات الجديـدة على المنطقـة تصل إلى كل ركن فيهـا، حيث أسست الجامعـات والمدارس، ورصفت الطـرق، وأقيمت منشـآت هـائلـة من مطارات وموانئ، بـل ومدن كاملة في بعض الحالات، وأقيمت شبكـات كاملة لـلاتصالات لا تقل عـن نظيراتها في الغرب، في الـوقت نفسـه الذي كـان تغيير الإنسان بـالتعليم وبالخدمـات الصحية والثقـافية يجري قـدر المستطاع، ولكن سرعته في التغير كانت أقل [1]، وهذا من طبـائع الأمور؛ لأن التغيير في الأمور المادية أسهل منه في البشر، ما توافرت الإمكانات.

ثانياً : العناصر غير المادية : وهذه تشمل ما يلي :

١ - اللغة، وهي أداة الثقافة ووعاؤهـا.

٢ - الفنون والآداب والعلوم وسائر أنواع المعارف التي ينتجها الإنسان.

---

(١) يمكن مراجعـة كتاب المؤلف : التربيـة ومشكلات المجتمع في دول الخليج العـربية، مشكلـة العمالة الأجنبية، معالجة إسلامية، عالم الكتب، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٣ - الاتجاهات والعادات، والتقاليدُ والمعايير الاجتماعية والقيم.

٤ - الدين (*).

٥ - المعتقدات الشعبية، وهي ما تظهر فيما نسميه بالفلكلور أو التراث الشعبي من أمثلة، وحكم، وأساطير، وحكايات، وفنون شعبية.

- والاتجاه هو ميل عقلي نحو أشياء معينة، وهذا الميل قد يكون إيجابيا، أو سلبيا، بالحب، أو بالكراهية.

- أما العادة، فهي عبارة عن سلوك يتكرر بالوعي أو باللاوعى في موقف معين، كعادة وضع غطاء معين على رأس الرجل، أو الأكل بطريقة معينة ثابتة.

- أما التقاليد، فهي مجموعة من الطقوسيات التي تتبعها مجموعة من الناس في مناسبات معينة كالموت أو الزواج.

- أما المعايير الاجتماعية، فالمعيار هو جملة السلوكيات المتوقعة من فرد ما، في موقف معين، يؤدي دوراً اجتماعيًّا محددًا، بحكم وضعه في مكانة اجتماعية محددة في ذلك الوقت.

- أما القيم الاجتماعية، فهي الأحكام الثابتة في المجتمع على أشياء، أو سلوكيات من حيث كونها حسنة أو رديئة، طيبة أو قبيحة (١).

(*) كنا نود لو أن المؤلفين أفردوا جزءًا خاصًّا بالدين يعالج فيه وحده، على أساس أنه هو الحاكم لحياة المجتمع، المجتمع المسلم بطبيعة الحال، وبحيث لا يعامل كعنصر من العناصر غير المادية في الثقافة، وبذا يصبح مثله مثل الآداب، لأنه - وببساطة شديدة - من عند الله «صبغة الله» جل وعلا، ولذا ينبغي أن نترفع به عن أن نقارنه بما يصنعه البشر بما فيهم من نقص وقصور وتناقض.

(١) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ص ٣٦ - ٣٧.

ولكننا هنا نختلف مع المؤلفين في تعريفهم للمعايير الاجتماعية، فلم يقل أحد بأن المعيار هو «جملة سلوكيات»، إذ المعيار أقرب للمقياس يحكم به الناس على سلوكيات الآخرين، ويتعرف الآخرون على غيرهم في ضوء المعايير التي تضعها الجماعة، ومن هنا تحكم على أشخاص بأنهم تصرفوا في ضوء تلك المعايير وعلى أساسها، كما تحكم على آخرين بأنهم لم يلتزموا بتلك المعايير.

كذلك فإن القيم أقرب ما تكون إلى المعايير، حيث يفسرها فؤاد البهي السيد على أنها معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية، وعامة، تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة، ويمنحها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية، ويقيم منها موازين يبرر بها أفعاله، ويتخذها هاديًا ومرشدًا، وتنتشر هذه القيم في حياة الأفراد، فتحدد لكل منهم خلاَّنه وأصحابه وأعداءه(*)(١).

(*) يمكن لمن يريد التوسع في هذا المجال أن يعود للكتاب الطيب الذي كتبه د. علي خليل مصطفى أبو العينين بعنوان: القيم الإسلامية والتربية، مكتبة إبراهيم الحلبي، المدينة المنورة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(١) فؤاد البهي السيد: علم النفس الاجتماعي، ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٢٩٤.

خصائص الثقافة :

للثقافة خصائص محددة وواضحة، يمكن إيجازها فيما يلي :

١ - التكامل :

ومعناه أن عناصر الثقافة ـ في أي مجتمع . . وفي أي مستوى ـ تتكامل فيما بينها، كما أنها تتوازن، حيث نجد أن الأمور المادية في الثقافة تستند على الأمور المعنوية في المجتمع وتتفاعل معها، وإذا حدث خلل بين الجوانب المادية والمعنوية، كأن يتقدم عنصر على آخر، وهو ما يطلق عليه التخلف الثقافي Cultural Lag، إذا حدث ذلك فإن المجتمع يحاول بقدر ما يستطيع أن يصحح ذلك الخلل، وإلا ظهرت فيه المشاكل، وحلت به العلل والأمراض الاجتماعية .

٢ - التراكم :

فحيث قلنا في بداية الحديث عن الثقافة أنها مكتسبة على مر الأجيال والعصور، نتيجة احتكاك البشر بما حولهم من بيئات طبيعية وبشرية، فإن الخبرات المكتسبة تتجمع في عقول هؤلاء البشر وفي سلوكياتهم، وتنتقل هذه الخبرات الثقافية بجانبيها المادي والمعنوي من جيل لآخر، دون توقف أو انقطاع، فهي إذن مستمرة لا تتوقف، وترثها الأجيال اللاحقة من الأجيال السابقة، لذا أطلق عليها الأنثروبولوجي الأمريكي « رالف لينتون R. Linton » التراث الاجتماعي الذي يرثه أفراد المجتمع عن الأجيال السابقة» (١).

وتقول الخطة الشاملة للثقافة العربية عن هذا الجانب المتراكم «إنها ـ أي الثقافة ـ إنجاز تراكمي متنام مستمر تاريخيا. فهي بقدر ما تضيف من الجديد، تحافظ على التراث السابق، وتجدد من قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحد معه هوية الجديد روحاً ومساراً ومثلاً، وهذا هو أحد محركات

---

(١) زكي محمد إسماعيل، مرجع سابق، ١٤٣ .

الثقافة الأساسية، كما أنه بعد أساس من أبعادها»[1].

٣ - الإنسانية :

ومعناها أن الثقافة تختص بالعنصر البشري، دون غيره من مخلوقات الله؛ وذلك - ببساطة شديدة - لأن الإنسان له تاريخ يتذكره ويتعظ من أحداثه، وله خبرات يستفيد منها، ويستعيدها ويعلمها أبناءه، فهي - الثقافة - فاصل نوعي بين الإنسان وسائر المخلوقات، وهي كذلك وسيلة الإنسان للالتقاء مع الآخرين من خلال عناصرها المختلفة واللغة خير دليل على ذلك، والتنافس في مجالات العلوم، والفنون مجال آخر لذلك الالتقاء.

إن الإنسان استطاع بواسطة عقلة أن يفكر، وأن يبدع ويبتكر، وأن يواجه الظروف الطبيعية القاسية التي اعترضت حياته، بل وأن يتغلب عليها، بعد أن أعمل فكره فيها، ولذا وجدنا أنماطاً من السلوك تعلمها الإنسان من مواجهته للكوارث الطبيعية، عرفها وخبرها وعرف فوائدها فعلَّمها أبناءه من بعده، فقلت مخاطر تلك الكوارث، ويكفي أن نتجه ببصرنا إلى اليابان لنرى أثر الزلازل فيها اليوم ونتذكر آثارها المدمرة قبل ذلك في حياة الشعب الياباني، وننظر كذلك في أثر العواصف والأعاصير في حياة المجتمع الأمريكي.. قديماً وحديثًا لنتبين معنى ما نقول.

٤ - التغير والتطور :

من خصائص الثقافة أنها تتغير في المجتمع الواحد بفعل ما يطرأ على ذلك المجتمع من تغيرات. فالشعب المصري - على سبيل المثال - يعيش على أرض وادي النيل منذ آلاف السنين ولكن لا يستطيع إنسان الادعاء بأن ثقافة قدماء

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٤٠.

المصريين كانت مثل ثقافة الشعب المصري تحت حكم اليونانيين أو الرومان، أو مثل ثقافته حين منَّ الله عليه بالإسلام. إن «الإنسان عبر تاريخه الطويل يطور من عاداته وتقاليده وأساليب حياته و إنتاجه» (١).

٥ - صناعتها للإنسان :

فعلى الرغم من أن الإنسان - كما سبق القول - هو صانع الثقافة ومبتدع عناصرها على مر التاريخ، إلا أنها تعود هي فتصنعه وتشكله حسب آخر أنماطها التي وصلت إليها. إن الطفل الصغير إنما يولد في ثقافة، وهي التي تشكل سلوكه ومفاهيمه واتجاهاته... فيتعلم الطفل - بالوعي وباللاوعى - أنماط السلوك من الأسرة، ومن غيرها من المؤسسات الاجتماعية في المجتمع، ولا يقبل المجتمع من سلوك الفرد إلا ما يتفق مع ثقافته السائدة، والمجتمع لا يتهاون في ذلك على الإطلاق.

«إن الإنسان حينما يولد في ثقافة يتأثر بها، وخلال حياته اليومية يتفاعل مع بيئته المحيطة فيؤثر في ثقافته. فبين الإنسان وثقافته علاقة جدلية، تأثير وتأثر، وتتغير الثقافة حينما يُجمع الأفراد على التغير ويقبلونه» (٢)، والأجيال الجديدة من أفراد المجتمع تصنع وتصهر داخل هذه الثقافة الجديدة بكل ما فيها من تغير قد لا تكون الأجيال السابقة قد مرت فيه أو خبرته، وهذا معنى قولنا إن الثقافة تصنع الإنسان على الرغم من أنه هو صانعها ومبدعها.

٦ - الانتقاء :

---

(١) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠

مما لا شك فيه أن الخبرات التي مرت بالإنسان، في مجتمعاته المختلفة كانت هائلة كثيرة ومتنوعة، ورغم أنه سبق القول بأن الثقافة تراكمية، إلا أنه مما لا شك فيه أن الإنسان قد قام بعمليات انتقاء كثيرة داخل عناصر ثقافته، فلو أن كل خبرة مر بها الإنسان حافظ عليها وأبقاها في ذاكرته أو في سجلاته لعجز اليوم عن حصرها والوقوف عليها جميعاً، ومن هنا فلا بد من التسليم بأن الإنسان قد قام بعمليات انتقائية واسعة لما تجمع لديه من عناصر ثقافية في الوقت الراهن.

يقول سرحان: «ويتميز المجتمع الإنساني بقدرته على انتقاء الخبرة من رصيدها المتراكم عبر الأجيال، مكوناً بها رأس المال الذي يتعامل به الإنسان في انتقاله من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة الاجتماعية»، وذلك كما نقل عن حامد عمار في «بعض مفاهيم علم الاجتماع»[1].

٧ - الإنسان صانعها:

فهو الذي يسيطر على البيئة الطبيعية (بفضل العقل الذي منحه الله إياه)، ويبحث في وسائل استغلالها والتكيف معها لتحقيق مطالبه. إن ذلك يعني أن الثقافة أمر متصل بالإنسان، وليست خارجة عن قوانين المادة والطاقة، وإنما هي نتاج النشاط الإنساني. وانطلاقا من علاقة الإنسان بالطبيعة وبالمحيط الذي يعيش فيه، تنبثق موضوعات النشاط الاقتصادي وتكون حول محور المنفعة والاستفادة، كما تتحدد وسائل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار، والتوزيع، وينبثق من هذا النشاط الاقتصادي كثير من العلاقات التي تنظمه، والقيم والمعايير التي تحكمه، والأجهزة والمؤسسات التي تحققه[1].

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ١٣٣.

ملحوظة مهمة :

وهذا الجزء - خصوصًا - الخاص بصناعة الإنسان للثقافة هو الذي يؤكد ما ذكرناه قبل ذلك عن ضرورة فصل **الدين** عند الحديث عن عناصر الثقافة من فن ولغة وغيرها؛ لأنه إذا كانت عناصر الثقافة من صنع الإنسان فالدين ليس كذلك على وجه اليقين؛ لأنه نزل من فوق سبع سموات . . من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الفهم الصحيح الذي ينبغي أن نقيِّد أنفسنا به نحن المسلمين، حتى وإن قال جميع علماء الغرب أو الشرق بغير ذلك.

٨ - شموليتها لكل مجتمع :

من الخصائص المهمة للثقافة أنها شاملة لكل أفراد المجتمع وطوائفه، بغض النظر عن غنى بعضهم أو فقرهم، وكذا بغض النظر عن تعليمهم أو جهلهم، واشتغالهم بالأعمال المنتجة للثقافة من آداب وفنون، أو كونهم مستفيدين مما ينتجه غيرهم، إنها إذن تشمل «النخبة من الجماهير الواسعة . . أي المبدعين من أي منبع أو نشاط كانوا، كما تشمل المستفيدين من الثقافة على حد سواء»، كما تقول بذلك الخطة الشاملة للثقافة العربية [1]. فالمجتمع كله - بهذا المعنى - إما منتج مفكر مبدع، وإما عامل نشيط منتج، وإما طالب علم مجد مجتهد، وإما طفل نام في طريقه للنضج، والجميع مستفيدون من جهود بعضهم البعض، والمحصلة النهائية غنى المجتمع بثقافته وتطورها بفضل ما يتراكم لدى مؤسساته ومنظماته وهيئاته من عمل كل هؤلاء الأفراد.

٩ - خاصية الاستمرار :

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ١٣٢ .

(٢) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٤٣ .

طالما أن الثقافة تتراكم في المجتمع، نتيجة خبرات أفراده.. مع عناصر الطبيعة، أو مع أفراد مجتمعه، أو المجتمعات الأخرى، فمعنى ذلك أنها مستمرة، من جيل إلى جيل، وعلى الرغم من فناء الأجيال المتعاقبة إلا أن الثقافة تبقى من بعدهم لتتوارثها الأجيال من بعضها ولتضيف إليها كل يوم جديدا، وهذا التوارث للثقافة - بعناصرها المختلفة - هو الذي يؤدي إلى وجود ما يعرف باسم «التراث الاجتماعي Social Heritage الذي يرثه أفراد المجتمع، أو بمعنى أصح أجيال المجتمع اللاحقة من الأجيال السابقة، كما يقول «رالف لينتون R. Linton الأنثروبولوجي الأمريكي المعروف، وكما ينقل عنه إسماعيل قوله بأن للثقافة قدرتها الهائلة على الانتقال التاريخي داخل المجتمع الواحد، بل وحتى من مجتمع إلى آخر (١).

١٠ - الثقافة فكر وعمل :

حينما وجد الإنسان على سطح هذه الأرض كان عليه أن يفكر، وأن يعمل، حتى يستطيع البقاء، ومنذ اللحظة الأولى التي واجهته فيها مشكلة، كما يعلمنا القرآن الكريم، وكانت مشكلة دفن الموتى، أرسل الله للإنسان غرابًا ﴿ **يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه** ﴾، وقد اعترف بعجزه أمام هذا الطائر ﴿**يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين**﴾، ولكنه تعلم الدرس.. بعد أن فكر فيه بعقله، نتيجة للخبرة السيئة التي مرت به. ومنذ ذلك الوقت وهو يفكر.. ويعمل «إن أي عمل إنساني لا يتم إلا إذا كان ترجمة لأفكار معينة، كما أن العناصر المادية على اختلاف أشكالها وطرزها لا تخرج عن كونها أفكارًا تجسدت في أعمال...

---

(١) زكي محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٤٤.

والـدين الإسـلامي لا يتمثل في العقيـدة وحـدهـا ، وإنما يتجلى في المعـامـلات والعبـادات والشعـائر التي يقـوم بها الإنســان المسلم امتثـالا لأوامـر الإســلام ونواهـيه»[1].

١١ - الثقافة نسيج معقد :

تشتمل الثقــافـة على عــدد كبير من السمات والمركبـات والنظم والأنســاق والأنماط الثقافيـة ، وذلك لتراكم التراث الثقافي واستمـراره عبر عصور طـويلة ، وكـذلك لاستعـارة عـديـد مـن السمات والأنماط الثقـافيـة من خـارج المجتمع نفسه . . . ويـرجع تعقد وتشابك العنـاصر الثقافية إلى أمر مهم ، هـو أن القدر الأكبر من السلــوك البشري ليس مجرد تجمع عشــوائي من الأنشطــة التي تمثل أنساقـا ترتبط ببعضها البعض ، وإنما يتم هـذا الارتباط الوثيق من خـلال ارتباط وتنسيق دقيق لهذه العنـاصر التي تتـداخل وتتشـابك فيما بينهـا بحيث لا يفهم نمط منها إلا بارتباط الأنماط والعناصر الأخرى به [2].

١٢ - الثقافة قابلة للانتشار :

كثيراً ما تكون المخترعـات والاكتشافات ، بطبيعتيها الماديـة والاجتماعية ، من إنتـاج فـرد أو جماعـة في بادئ الأمـر ، فإذا بقيت على هـذا المستـوى الفـردي أو الجماعي تـلاشت بمـوت الفرد أو الجماعـة التي اكتشفتهـا . ولكنهـا تنتشر عن طريـق الأفراد ، داخل المجتمع الـواحد ، أو عن طـريق الجماعات الإنسـانية في المجتمعات .

وانتشار هذه المخترعات يتم عادة على أساس احتوائها كعناصر ثقافية جديدة داخل الكيان العام لثقـافة المجتمع ، فالانتشار هو انتقال عنـاصر ثقافية داخل

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

الثقافة نفسها من جزء إلى أجزاء أخرى لتشمل كل الثقافة، أو انتقال هذه العناصر الثقافية من ثقافة مجتمع إلى ثقافة مجتمع آخر. ويكون الانتشار مباشرا عن طريق احتكاك الأفراد والجماعات ببعضها البعض داخل المجتمع الواحد، أو عن طريق احتكاك المجتمعات ببعضها البعض. (١)

ويكون الانتشار سريعا وفعالا حين تبدو أهمية العناصر الثقافية المنقولة، إذ يتوقف قبولها في المجتمع على ما تتميز به من فائدة له، كأن تكون قادرة على حل مشكلة معينة، أو قادرة على إشباع حاجة لأفراده فتزداد درجة انتشارها وتكاملها داخل الإطار العام لثقافته، لذلك فإن انتشار العناصر الثقافية المادية كالمخترعات والأدوات والمنتجات الصناعية يكون أكثر في سرعته من انتشار العناصر الثقافية غير المادية كالمفاهيم والاتجاهات والعادات السلوكية وغيرها مما يتصل بأنماط السلوك في الثقافة (٢). ولعل مثال انتقال المخترعات المادية وانتشارها في دول الخليج العربية يبين ما سبق بوضوح، حيث تعج شوارع الخليج وطرقاته بالسيارات من كل شكل ولون، وحيث تنتشر المحلات الضخمة (السوبرماركت) التي تمتلئ بكل ما هو موجود في العالم الغربي من ماديات، بينما لم تستطع القيم والاتجاهات الغربية أن تخترق مجتمعات الخليج بالقدر نفسه الذي فعلته العناصر المادية، وإن كانت هناك - للأمانة - بوادر مقلقة في هذا الشأن. وسوف نتعرض لها عند الحديث عن «الغزو الثقافي» إن شاء الله.

١٣ - حركية الثقافة :

وقد يكون هذا المصطلح غريبا بعض الشيء، ولكننا نقصد وضع الثقافة من

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٤٨ - ١٤٩.

حيث هي ديناميكيـة متحركة، أو استاتيكيـة ساكنة، ومعروف أن الجمـود التام معناه الموت، ولذلك فحينما نقول إن ثقـافةً ما ثقافةٌ جامـدة أو ساكنة فلا يعني ذلك أنها ثقـافـة ميتـة لا حـراك فيهـا، ولكن معنـاه أنها ثقـافـة هـادئة الحركـة لا تـــنزع إلى السرعـة والحـــركـــة النشيطة، وأن حيـاة الأفـــراد فيهـا شبه ثابتـــة وأدوارهم الاجتماعيـــة محفـوظة أو هـي شبه محفـوظـة. . التغير فيها يسيرٌ جـدًّا ومحـــدود، وهذه عـادة هي ثقـافـة المجتمعات البـدائيـة، وتقترب منهـا ثقافـة المجتمعات الـريفية البعيدة عن المدن، والبعيدة من ثم عن التأثيرات المتسـارعة للأحداث.

وعكس ذلك، بطبيعة الحال، ثقافـة المجتمعات الحية الدينـاميكية المنفتحة على الثقافات الأخرى بكل تياراتها. تتأثر بها، وتؤثر فيها، تأخذ منها وتعطيها، وهي بذلك تسـاير روح العصر وتقدمه العلمـي والتكنولوجي، كذلك نجـدها تأخذ بـالنظام الديمقـراطي لأسلوب حياة يـرقى بالمجتمع، وينهض بأوضـاعه الاقتصادية والسياسيـة والاجتماعية، ويمكن أفراده من الحراك الاجتماعي، ومن ثم تقل المسـافـة الاجتماعيـة Social distance بين أفـراده وجماعاتـه وطوائفـه وطبقاته. . . وتتمثل الثقافة المتغيرة بصفة عـامة في ثقافة المدن. . وفي الثقافات التقدمية، بعكس القرى والثقافات البدائية [1].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٥٠ - ١٥١.

١٤ - الثقافة تكتسب بالتعلم :

يقول إسماعيل «لما كانت الثقافة تاريخية المنشأ . . أي إنها تكونت على مدار التاريخ البشري، وقد شارك فيها أفراد الجماعة ككل، أو في جانب معين منها، فإن هذا الانتقال يتم عن طريق التعلم والتقليد، من جماعة لأخرى، أو من فرد لأفراد آخرين، عبر الزمان والمكان الأمر الذي جعل الثقافة وسيلة للاتصال بين الأجيال المختلفة، وليس بين أفراد الجيل الواحد، ولا يتم هذا الانتقال عن طريق الوراثة البيولوجية، وإنما يتم عن طريق التنشئة الاجتماعية Socialization، أو التنشئة الثقافية Enculturation، تلك التي بموجبها تنتقل الثقافة من جيل لآخر. . . إن الطفل الإنساني يولد صفحة بيضاء، تخط عليها الثقافة بصماتها المتمثلة في أنماط السلوك، وطرائق العادات، وطبيعة القيم والأخلاقيات من خلال نموهم في المجتمع وفي إطار تنشئتهم الثقافية والاجتماعية في محيط الأسرة والجماعة والمجتمع والدولة. يقول الرسول ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم يقول اقرأوا ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» [١]. (رواه أبو هريرة).

---

(١) زكي محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٤٠.

مكونات الثقافة

إذا كانت هذه هي الثقافة، من حيث نشأتها وجذورها، ومن حيث معانيها المختلفة، وكذا من حيث خصائصها، فما يا ترى مكونات تلك الثقافة؟ لعل الصفحات القليلة القادمة تجيب عن هذا التساؤل.

أ - العموميات : Universals

وهي تمثل ذلك القدر المشترك بين أفراد الجماعة والأكثر أهمية من مكونات الثقافة، حيث تشتمل على الدين واللغة والعادات والتقاليد والقيم والمعايير التي تحكم تصرفات الأفراد داخل المجتمع، وتأتي أهمية هذه العموميات من كونها هي التي توحد أبناء المجتمع الواحد، وتؤلف بينهم، وتعطيهم طابعهم الخاص الذي يفرق بينهم وبين غيرهم من المجتمعات أو الشعوب، كما أن هذه العموميات هي التي تعمل على تماسك أفراد المجتمع وعلى شدة تعاضدهم مع بعضهم، وخصوصاً في أوقات الأزمات الشديدة، أو الحروب بينهم وبين الآخرين، فهنا تبدو قيمة تلك العموميات في ضم أفراد المجتمع مع بعضهم البعض، وتقريب مشاعرهم، وبعث حبهم لبعضهم البعض، وحرصهم على الصالح العام لمجتمعهم، وخصوصًا في أوقات الأزمات والحروب والصراعات؛ لأنه من المعروف أن العدوان الخارجي يوحد القوى الداخلية للمجتمع، ودائما ما تلجأ الجماعة إلى هذه العموميات تتعلق بها، بل وتنتصر بها. وكان رسول الله ﷺ يطلب من أصحابه أن يكثروا من ذكر الله، سبحانه وتعالى، عند لقاء العدو، ومعنى ذلك أنه كان يلجأ إلى عنصر «الإيمان» يبثه في نفوس أصحابه، حتى يثبتوا في وجه أعداء الإسلام، **ومعروف أن الدين - في المجتمع المسلم - هو أول أمر في تلك العموميات**، ودول اليوم تحاول - خصوصاً من خلال الإعلام -

أن تذكر أبناءها بماضيهم، وأن تذكرهم بما يجمعهم ويربطهم ويوحدهم (أثناء الأزمات)، وهي تلك العموميات.

كذلك يمكن القول إن هذه العموميات Universals هي التي تعطي المجتمع لونه الذي يميزه عن غيره من المجتمعات، أو بعبارة أخرى، هي التي تشكل شخصيته، فلكل مجتمع شخصيته تماما مثل الأفراد، ويستطيع أفراد المجتمع الواحد أن يتعارفوا، بل أن يتجاذبوا إلى بعضهم، خصوصاً عند تواجدهم خارج مجتمعاتهم، بحيث يعرفون بعضهم البعض بيسر وسهولة، دون أن يكون بينهم سابق معرفة شخصية.

ب - الخصوصيات Specialities :

وإذا كانت العموميات تشمل كل أفراد المجتمع بجميع مستوياتهم التعليمية والعلمية والثقافية والاقتصادية، فإن الخصوصيات شيء آخر، إذ تختص بها طوائف معينة من أبناء المجتمع يمتلكون مهاراتها، ويتحكمون في أسرارها، ويعرفون طرق التعامل بها، فهي - بذلك - وقف عليهم، وحكر خاص بهم، لا يدخل من أبوابها إلا من تأهل لها، وسمحت له قدراته بالمرور من خلال متطلباتها، حيث لها لغتها الخاصة بها، وقواعدها التي ينبغي الالتزام بها، بل وأساليبها في التعامل والتخاطب.

هذا ويقسم البعض هذه الخصوصيات إلى نوعين هما :

١ - الخصوصيات المهنية :

وهي التي تستلزم لممارستها خبرات ومهارات فنية، ومصطلحات سلوكية، دون اعتبار لأصحاب هذه المهارات من الأفراد، فهي ليست وقفا عليهم - كما يقول سرحان - بل تسمح بدخول أفراد الفئات الأخرى (كان ينبغي القول : لأفراد المجتمع الآخرين) للعمل فيها، فالعمل الصناعي والزراعي،

والاشتغال بالطب والمحاماة والتدريس ليس قاصرا على فئة بعينها من الناس، بل هو عمل مسموح به لمن يشاء من أفراد المجتمع (كان ينبغي القول : لمن يقدر عليه ويمتلك مهاراته وفنونه من أفراد المجتمع).

نخلص من ذلك إلى أن فئات الناس في هذا القسم ليست ثابتة، وأن كل نوعية عمل تخصصية تكسب المشتغلين بها أنماطا شخصية معينة، ومصطلحات سلوكية تختلف عن مثيلاتها في أنواع الأعمال الأخرى، وبازدياد العلم وتقدمه، وبتطوير الحياة - وخصوصًا في جانبها الصناعي (التكنولوجي) نجد زيادة في تقسيم العمل، وتعمقا في تخصصاته المتشعبة، ومن ثم فإن هذه التخصصات الفنية تزداد، وتزداد معها ـــ من ثم ـ خصوصيات الثقافة[1].

٢ - الخصوصيات الطبقية :

وهذه تقتصر على فئات معينة في المجتمع، فهناك ـ في كل مجتمع ـ الطبقة الراقية، أو الأرستقراطية، والطبقة المتوسطة، ثم طبقة قاع المجتمع، والتي يطلق عليها البعض طبقة الرعاع أو الدهماء، «وكل واحدة من هذه لها قيمها واتجاهاتها، وكذا مصطلحات سلوكها وآدابها ومعاييرها الخاصة المنظمة لحياتها، والمتحكمة في علاقاتها بغيرها من الطبقات، فالاهتمامات الخاصة بالطبقة الراقية مثلا تنعكس في اختيارها لأساليب وأدوات وأماكن شغل وقت فراغها، وفي متابعة الموضات في الأزياء، وموديلات السيارات، وفي تفضيل أنواع من المأكولات والمشروبات، والالتزام بمراسيم وشكليات حضور الحفلات والسهرات وغير ذلك مما لا تقدر عليه الطبقات الاجتماعية الأخرى»[2].

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٤٠ - ١٤١.

والفرق بين الخصوصيات الطبقية والخصوصيات المهنية يكمن في إمكانية الدخول في هذه الخصوصيات ومعايشتها، فبينما يكون الدخول في الخصوصيات المهنية مباحا لجميع فئات المجتمع ما توافرت لديهم الاستعدادات والرغبات والمؤهلات العلمية المناسبة، نجد أن ذلك أمر عسير بالنسبة للدخول في الخصوصيات الطبقية. وتتسم الخصوصيات الثقافية بنوعيها بأنها ليست قدراً مشتركا بين جميع أفراد المجتمع، ومع ذلك فإن كل فرد في المجتمع يعرف عنها بقدر، فالناس يعرفون أهمية الطب في حياتهم، ويقدرون دور الطبيب، ويتفهمون بعض اتجاهاته ومقاصده في علاج مرضاهم، ولكنهم لا يعرفون دقائق عمله الفني ولغته العلمية؛ لأنها قاصرة على أفراد مهنته»[1].

٣ - المتغيرات Alternatives :

ويطلق عليها البعض لفظ «البدائل» بدلا من المتغيرات، وهي لا تنسب إلى عموميات الثقافة بحيث تشيع بين جميع أفراد المجتمع وطوائفه وجماعاته، ولا إلى خصوصيات الثقافة بحيث تكون قاصرة على فئة بعينها أو طائفة من طوائف المجتمع، وإنما هي أمور مستحدثة تأتي للمجتمع ـ في الغالب ـ من خارجه، نتيجة للاحتكاك المباشر بينه وبين مجتمعات أخرى ذوات ثقافات مختلفة.

وأهمية هذه المتغيرات أنها تمثل الأطراف التي تنمو الثقافة بواسطتها أو من خلالها، فحينما تظهر إحدى هذه المتغيرات فإنها تسبب قلقا في المجتمع، أو على الأقل في بعض قطاعاته؛ لأنها جسم غريب يوشك أن يستقر في جسم المجتمع، وعادة ما تكون هناك مقاومة مبدئية من المجتمع لذلك، ولكن إذا أثبتت المتغيرة الجديدة أنها ذات فائدة واضحة للمجتمع، أو أنها حلّت إحدى

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٤١ - ١٤٢.

مشكلاته التي كانت تجابهه فإنها تكون قد ثبتت أقدامها فيه، فإذا كانت فائدتها تعود على طائفة معينة ــ بالتحديد ــ من أبنائه صارت من خصوصيات ذلك المجتمع، أما إذا برهنت على أنها مفيدة ونافعة للمجتمع كله فحينئذ تصبح من عمومياته، وتدخل في نسيجه، وتصبح جزءًا من ثقافته لا ينفك منها، ولا يتجزأ بعيدًا عنها.

ولعل مثال «السيارة» ودخولها إلى مجتمعات الخليج العربي يوضح هذه الفكرة، فلم يكن أفراد المجتمع يعرفون وسيلة للانتقال بين مدنهم وقراهم والهجر سوى السير على الأقدام أو ركوب الجمال وغيرها، ولكن حينما دخلت السيارة لأول مرة في حياتهم فما لا شك فيه أن كثيرين منهم تعجبوا لها للمرة لأولى، وكثيرين منهم - كذلك - أجفلوا منها وخافوا من استعمالها. كذلك فإن بعضهم حذر نفسه وغيره منها، ومن ركوبها، خصوصاً بعد أن وقعت بعض الحوادث التي راح ضحيتها بعض الأفراد والضحايا.

ولكن وبعد مرور قليل من الوقت أثبتت السيارة أنها عنصر «متغير» نافع، بل شديد النفع، خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار المسافات الشاسعة في الجزيرة العربية، وبالتحديد في المملكة العربية السعودية، وإذا أخذنا في الاعتبار كذلك الكم الهائل من المصالح التي بدأت تقضيها السيارة بأشكالها المختلفة، وبالذات بعد أن أنشئت لها شبكات هائلة من الطرق الرائعة. ولذلك فإنه ليس غريبا الآن أن صار كل بيت في دول الخليج يمتلك أكثر من سيارة، **وأصبح هذا المتغير الثقافي الجديد جزءًا من عموميات الثقافة الخليجية، يهتم به الكبار والصغار على السواء، ويستوردون منه أحدث الطرز والأنواع.**

هذا عن المتغيرات في جانبها المادي، وقدر رأينا أنه يدخل إلى ثقافة المجتمع بسرعة، بقدر ما يثبت فائدته ومنفعته، ولكن هناك متغيرات معنوية، فلو أن

مجموعة من الشباب من أبناء مجتمع ما، من مجتمعات الخليج المحافظة، ذهبت إلى الخارج بقصد السياحة أو الدراسة مثلا، وعادت ومعها بعض الأفكار الإباحية التي يعج بها الغرب أو الشرق، وتسمح بها مجتمعاتهما، ثم حاول أفراد هذه المجموعة أن يدخلوها ـ كمتغير ثقافي جديد ـ إلى مجتمعهم المحافظ فإنها بلا شك سوف تقابل بالرفض، من جميع أفراد المجتمع، أو من النسبة الغالبة منهم على الأقل، وسوف تكون النتيجة هو فشل هذا المتغير الجديد في غزو المجتمع أو في البقاء على أرضه، ولا يكون المصير إلا أن تذوي وتذبل. ثم تموت، ومن هنا يصدق قول سرحان: «إن المتغيرات المتصلة بالجوانب المادية في الثقافة يسهل استقرارها نتيجة سرعة تقبلها من أفراد المجتمع، نظرا لفعالية وظيفتها وظهور أثرها سريعا.

بينما نجد العكس في استقرار المتغيرات المتصلة بالجوانب المعنوية في الثقافة كالقيم والاتجاهات الفكرية والخلقية والعادات والتقاليد الاجتماعية، نظرا لصعوبة تكيف الأفراد معها، والاستبدال بالعلاقات القائمة فعلا علاقات أخرى. وهكذا نجد أن المتغيرات قد تستقر سريعا، أو قد تبقى مترددة حائرة متنافسة، أو قد تتردى ليقوم مقامها أخرى تمر بالدور نفسه، وهكذا[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٤.

وظائف الثقافة

للثقافة وظائف مهمة في حياة المجتمع يمكن إيجازها في النقاط التالية :

أولاً :

أنها تميز المجتمعات البشرية عن بعضها، وتوضح السمات العامة التي يتصف بها كل مجتمع، ولا نقول إن الثقافات تجعل مجتمعا أفضل، أو أكثر رقيا، فكل مجتمع متفرد بثقافته، معتز بها، بل ومدافع عنها عند اللزوم. إن الثقافات تتمايز فيما بينها، ولكنها لا تتفاضل، على الأقل من وجهة نظر أصحابها.

ثانياً :

تعمل الثقافة على تماسك البناء الاجتماعي داخل المجتمع، حيث يعرف كل شخص موقعه داخل جماعته، ومن ثم يؤدي أدواره الاجتماعية المطلوبة منه، دون أن يتصادم مع غيره من الأشخاص. إن شغل الأشخاص للمراكز الاجتماعية، وممارسة الأدوار المرتبطة بها يتم على أساس توقعات المجتمع من الأفراد، وذلك يساعد على تماسك المجتمع وإزالة عناصر الصراع فيه.

ثالثاً :

تشكل الثقافة بعداً نفسيًّا Psychological مهمًّا للفرد داخل جماعته، حيث يشعر بالأمان حين يكون بينها؛ لأنه يتعامل مع أفرادها على أساس الأطر والأنساق والنظم والقيم التي ارتضتها لنفسها، وتشربه منها خلال تنشئته الاجتماعية الطويلة منذ الطفولة، كما أنه يشعر بالأمان النفسي حين يكون خارج جماعته ويلتقي بنفر من أبناء ثقافته يحس بأحاسيسهم ويشعر بشعورهم. إن الطمأنينة النفسية، وإشباع الحاجة للأمن من أهم وظائف الثقافة.

رابعاً :

توضح المعايير والقيم التي تتبناها جماعة بعينها، داخل ثقافة معينة، توضح للفرد حدود علاقاته وتعاملاته مع الأفراد والمنظمات والهيئات داخل تلك الجماعة والمجتمع، ومعرفة هذه الحدود والالتزام بها أمر مهم للطرفين : الأفراد والمنظمات والهيئات؛ حيث يسلك كل منهم على بينة من أمره، مما يجعل الحياة والعمل والتفاعل تسير بهدوء وسلاسة دون تعقيدات أو تصادمات.

خامساً :

تعمل الثقافة على إيجاد اهتمامات مشتركة بين أفراد المجتمع، ووجود الأهداف المشتركة، والسعي نحو تحقيق تلك الأهداف يربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، بل ويكسبهم الشعور بالانتماء والتضامن والتعاون، ومن ثم يجنبهم الصراع والتمزق، ويحقق بينهم روح الجماعة الواحدة. ووجود هذه الروح دافع رائع لإنجاز المعجزات، وخصوصًا إذا كانت هناك أهداف يجمع الكل على تحقيقها ويسعون لذلك بكل جهدهم وطاقتهم.

سادساً :

تحفظ الثقافة للمجتمع تراثه القديم، وتقوم بنقله عبر الأجيال المتعاقبة من القديم إلى الحديث إلى الأحدث، ولولا هذه العملية لانقطعت الصلة بين الأجيال الحالية في مجتمعاتها وبين ماضيها، ولضاعت - في الوقت نفسه - خبرات هائلة مرت بها الجماعات البشرية في صراعها الطويل مع الطبيعة، ومع بعضها البعض، ولكان على كل جيل أن يبدأ من جديد، وأن يكتسب خبراته بنفسه.

سابعاً :

تحدد الثقافة ذات الإنسان وعلاقاته مع نظرائه، ومع الطبيعة، ومع ما وراء

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٤٠.

الطبيعة (؟؟) - كما تقول الخطة الشاملة للثقافة العربية - من خلال تفاعله معها وعلاقاته بها، في مختلف مجالات الحياة [1]. ولا ندري لماذا لا يقول من أسهموا في تلك الخطة شيئاً من علاقة الإنسان بخالقه مباشرة، وخصوصًا في مجتمعنا العربي المسلم، بدلاً عن الحديث عن «ما وراء الطبيعة» ؟؟ !!

ثامناً :

هي قوام الحياة الاجتماعية . . وظيفة وحركة، فليس من عمل اجتماعي، أو فني جمالي، أو فكري يتم إنسانيًّا خارج دائرتها، وهي التي تيسر للإنسان سبل التفاعل مع محيطه مادة وبشراً ومؤسسات [1].

تاسعاً :

هي وسيلة وحدة الأمة (المجتمع) لأنها هي التي تنسج وحدة التكوين الداخلي فيها، وتوحد في أعماق الذات نماذجها البشرية وقيمها، وتجمع أفرادها على الالتزام بمصيرها التضامني الواحد.

عاشراً :

هي وسيلة تأكيد للذات وللتمايز عن الآخرين (وليس للتميز. . فالفرق كبير)، وهي بقدر ما تقرب المرء من قومه تبرز من خلاله عبقريته الخاصة، وتكشف عن تباين باقي البشر وتفرده الإنساني عنهم [2].

وإذا كنا نقبل فكرة التمايز، بمعنى الاختلاف إلا أن فكرة تفرد الإنسان عن باقي البشر هذه التي يقول بها واضعو خطة الثقافة العربية يصعب قبولها. حقيقة لكل إنسان سمات وقدرات تختلف عن الآخرين، ولكن ليس لدرجة «تفرد إنسان واحد عن جميع البشر» . . . ويكفي أن الله سبحانه وتعالى يقول في محكم آياته على لسان سيد الخلق أجمعين ﷺ : ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم**﴾.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣.

حادي عشر :

الثقافة وسيلـة أمان واطمئنان لأفراد الأمة الواحـدة (المجتمع الواحد)، فهي أكثـر النشاطـات اتصالا بكـرامة الإنسـان، وأعمقها تأكيـدا لذاتـه، وتقريـرًا لشخصيتـه. إنه لا يمارس حـريتـه إلا من خلالها (وذلك لا يحدث طبعـا إلا في المجتمعات التي تحترم حـرية الإنسان وتحافظ على كرامتـه، ولا تهدد آدميته التي كرمه الله بها) . . . ﴿ **ولقد كـرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحـر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممـن خلقنا تفضيلا** ﴾، ولا يشعر بتحقيق ذاته إلا فيها، ولا تنتفي عنه **الغربة** إلا في محيطها وضمن قيمهـا [1].

ثاني عشر :

هي وسيلة دفـاع، وحصن أمان في اللحظات المصيرية؛ لأنها آخـر ما يمكن انتزاعـه من النفوس [2]. والـواقع أن هذا القـول ينطبق خصـوصاً على جـانب الإيمان في حياة الأفـراد؛ فهو الملجأ الأخير الـذي يلجأ إليه الإنسـان، ويعتصم به. ولعل مـا يجري في «البوسنة والهرسك والشيشان»، هـذه الأيام من اعتصام المسلمين بدينهم أمام الضرب المجرمين والـروس الملحدين يوضح دور الإيمان في حياة البشر، وقد سبق ورأينا الأعاجيب في الصراع بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان في معارك الإيمان في كل من الجزائر ضـد فرنسا وأفغانستـان ضد الاتحاد السوفييتي، حين احتمى المسلمـون بدينهم وإيمانهم وقاتلـوا أهل الشرك والكفر ودافعوا عن دينهم وعقيدتهم، وعن أوطـانهم، ودافعوا عن أراضيهم حتى أتاهم نصر الله المبين، وهـو نفس مـا يجرى الآن في الأرض المقدسـة. . فلسطين، بين النفر المؤمن من الفلسطينيين واليهود الملعونين إلى يوم الدين.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤.